الأقلام

مجلة فكرية عامة تصدرها وزارة الإعلام - بغداد

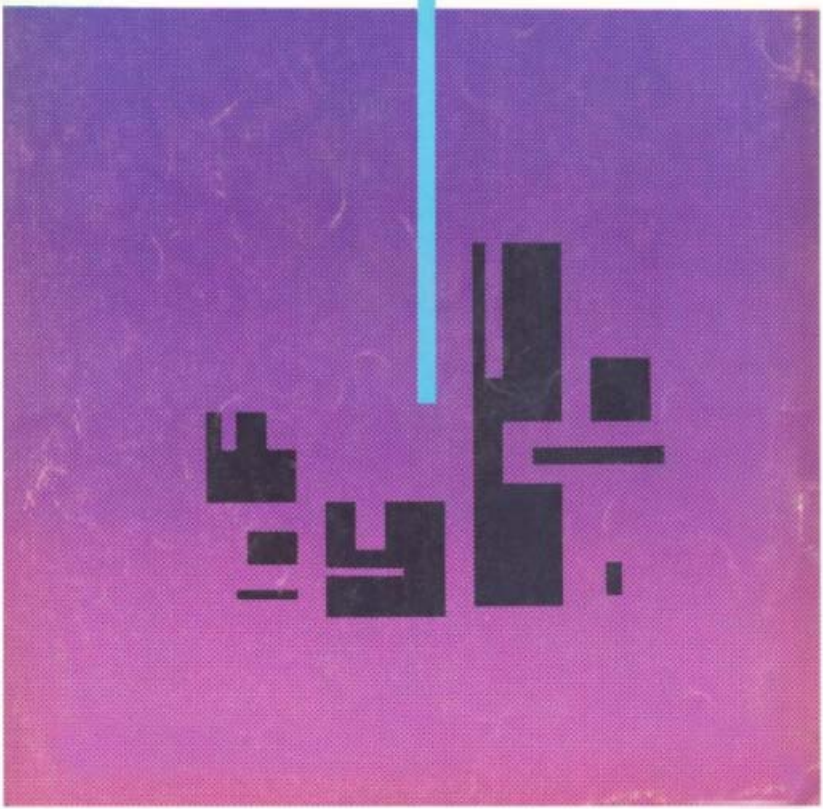

مناقشات

بقلم : عبدالكريم غلاب

تقييم ملاحظات السيد

احمد نصيف الجنابي

وصلني عدد حزيران (يونيه) من مجلة الاقلام متأخرا ولذلك لم استطع ان اقرأ الملاحظات التي كتبها الاستاذ احمد نصيف الجنابي عن كتابي « دفاع عن فن القول » الا في اخر اب (اغسطس) ومع ذلك احببت الا تفوتني مناقشة هذه الملاحظات لا محاولة لاقناع السيد الملاحظ ، ولكن محاولة لرفع اوهام قد تكون تسربت الى بعض القراء ممن لم يتمكنوا من قراءة الكتاب ، ومكنتهم « الاقلام » من قراءة النقد .

قلما احب ان اقرأ نقدا لكتاب لم اقرأه من قبل ، وان كنت لا انكر ان ما تنشره المجلات عن الكتب ـ تعريفا ونقدا ـ يحمل الكثيرين على ان يقرأوا هذه الكتب . لا اقرأ نقدا لكتاب لم اقرأه من قبل لانني لا ارغب في ان تحتكر رأيي افكار مسبقة عن الكتاب قد يصعب التخلص من تأثيرها خاصة اذا كان الناقد ممن استوعبوا الكتاب ونفذوا الى اعماقه .

وانا اشفق على الذين يحاولون ان يقرأوا « دفاع عن فن القول » بعد المنهج الذي اتبعه الاستاذ الجنابي في نقده لانه ، فيما اعتقد ، لم يكن منصفا ، ولانه حاول ان يفرض مفاهيم خاصة في منهج التأليف . وقد يجوز لناقد كتاب ما كل شيء الا ان يفرض منهجه على المؤلف . والا لما جاز للموءلفين ان يكتبوا كتبهم الا بعد استشارة فنية يسديها لهم النقاد . والسيد الجنابي اجاز لنفسه ان يقسم معالجة القضايا النقدية الى ثلاثة مناهج : منهج يقوم على اساس تقديم النماذج ثم تطبيق القواعد ، ومنهج يقوم على اساس تقديم القواعد ثم تقديم النماذج الجيدة ، والمنهج الثالث يتصف بتقديم قواعد نقدية دون نماذج . وقد استحسن المنهجين الاولين بينما قال عن المنهج الثالث الذي اتبعته : انه قليل الجدوى .. ولا يصلح حتى للحديث عن فرع واحد من فروع النقد الادبي ...

واذا كنت لا اناقشه الحساب فيما اختار من مناهج، او ما فضل منها ، فاني لا ابيح له ان يفرض منهجا معينا على كل من رغب في كتابة كتاب عن جوانب من النقد الادبي. وفي رأيي المنهج الذي يعتمد على تقديم النماذج قبل النظريات او بعدها يتسم بالطابع المدرسي . ومع احترامي للموءلفين العرب والغربيين الذين اشار اليهم فان المنهج الذي اتبعوه قد يصلح في كتب التعليم الثانوي او الجامعي التي تعطى للطلبة كدروس نظرية وتطبيقية ، ولم اضع هذا الكتاب ليكون دروسا مدرسية ، بقدر ما وضعته ليتحدث عن نظريات نقدية ما تساهم في الدفاع عن القيم الادبية التي تتعرض للتنكر في حمى الاتجاه التقني والتكنولوجي من جهة ، وفي حمى التنكر لكل القيم الجمالية في الادب : لغته واساليبه ومضمونه .

من هنا ارى انه من غير المنطق ان يحاول ناقد ما فرض منهج معين اتبعه موءلفون اعجب بهم على الاخرين ، الا اذا اراد منهم ان يكونوا نسخة طبق الاصل مما قرأ من كتب .

ولا اناقشه في طريقة ترتيب فصول الكتاب ، فله اعتباره الذي يختلف عن الاعتبار الذي لجأت اليه وانا اوءلف هذا الكتاب . ولعله لم يقرأ الكتاب ككل ، وانما قرأه كفصول مقطعة فلم يستقم في ذهنه الترابط بين فصول الكتاب . ومهما يكن فالهم في تقييم الكتب ونقدها هو الافكار والنظريات ، لا طريقة تنسيق الفصول ، التي لن نصل فيها الى اتفاق ، ما دام لكل اعتباره حتى في تنسيق فصول كتاب هي التي تقيم وحدته .

والسيد الجنابي مخلص شديد الاخلاص لمناهج الكتب التي قرأها ولذلك صدم وهو يقرأ كتابا لكاتب لم يكن في مثل اخلاصه لهذه التقاليد . فكيف يجرأ ان يكتب كاتب « دفاع عن فن القول » دون ان يرجع الى المصادر التي رجع اليها السابقون واللاحقون فينقل نظرياتها ويناقش هذه النظريات ثم يدلي برأيه ان كان له رأي بعد ذلك . اعتقد ان الاخلاص بحماس لمنهج ، استهلك حتى عفى عليه الزمان ، اذا كان يلزم السيد الجنابي فلا اقل من ان لا يحاول الزامنا به . قد قلت في مقدمة الكتاب : « لم اقصد ـ فيما عرضته من اراء وافكار وتجارب ـ الى المناقشة المنطقية ، ولا عدت في الاراء التي استعرضتها الى مصادرها الاصلية مستعينا بالنصوص ، ومشيرا في اسفل كل نص الى الكاتب والكتاب والصفحة والسطر . فليس ما قصدت اليه القيام ببحث اكاديمي تعظم قيمته بكثرة هوامشه وفهرس المصادر التي رجع اليها المؤلف، ولكني استخدمت اسلوب الرد التلقائي للافكار المتداولة، وناقشتها باسلوب ذاتي ، كما استعرضت الاراء الخاصة وتجاربي الخاصة بنفس الاسلوب » .

وفي رأيي ان منهج الرجوع الى المصادر في كل نظرية لا يفيد القارىء ، الا اذا كان الموءلف يعود في كل رأي الى المصدر الاصلي . معظم الموءلفين يعودون الى النظريات القديمة او ما بقي في اذهانهم منها ، ولا يشيرون اليها الا اذا كانوا بدرسون تطور هذه النظريات كما فعل الدكتور مندور في كتابه « النقد المنهجي عند العرب » و « وكما فعل الدكتور شوقي ضيف في كتابه » الفن ومذاهبه في

الشعر العربي » ، وكما فعل طه ابراهيم في كتابه « تاريخ النقد عند العرب » وكما فعل زكي مبارك في «النثر الفني» يبقى ان كتب النقد تعتمد على نظريات اصبحت مشهورة.

وكان هدفي من الكتاب استعراض بعض هذه النظريات ومحاولة بلورتها في روءيا جديدة ، واغناوءها برائي الخاصة . على ان النظريات والاراء ليست ملكا لاحد ، ولا احد يستطيع ان يدخل بها في مجال « التحفظ العقاري » وانما هي نهر تتسع ارجاوءه كلما صبت فيه روافد صافية غنية ثرة .

كم من ناقد كبير لم يزد في نقده على ان اقتبس كثيرا من النظريات منذ عرف نقد الشعر عند ارسطو واغناها بمفاهيم حديثة نابعة من الانتاج الحديث ، ومن قراءاته المتنوعة في مختلف الاداب ، ومن ملاحظاته الذاتية . وكان عليه لكي يميز بين ماله وما لغيره ان يجلس الى مكتبته الحافلة بما قرأ طيلة حياته ليعيد كل فكرة الى اصلها . حتى يقول اخيرا : هذا لي ، وهذا لغيري . وما ذا تكون النتيجة بعد ذلك؟ اذا كانت ثلاثة ارباع آراء كل كاتب ممتاز من غيره كما يقول احد النقاد فما بالك بالدارس الذي لن يكون في مكنته ــ ولا يجدى ذلك نفعا فيما يقدم من نظريات ــ ان يعود الى كل ما كتب الاوائل ليناقشهم الحساب . تلك طريقة يلجأ اليها اصحاب الرسائل الجامعية الذين يخترعهم المتحنون ليعرفوا مبلغ اطلاعهم وقدرتهم على المناقشة والبحث .

ليس أسهل من ان يعود الباحث الى المصادر يستقيها ثم يناقشها ليكون معها او ضدها . وليس اسهل من ان أعود الى النصوص من قصصي وروايائي فيما كتبته عن تجربتي الخاصة لتصدر هذه التجارب في كتاب ضخم بما تملأ به من نصوص واستشهادات . وفي رأيي ان اسلوبا كهذا قد تجاوزته الاحداث . وانا افترض ان القراء قد الموا ببعض ما كتب في الموضوع ، ولا اتناوله الا من جانب ما وضعت الكتاب من اجله ، والا من جانب ما يساعدني في الدفاع عن فن القول .

الكتاب كما يدل عنوانه دفاع عن فن القول ضد تيار التنكر للجانب الروحي والفني والعاطفي في الانسان . فكان من الطبيعي ان يبدا الدفاع بتوضيح جوانب من ازدواجية الانسان: الجوانب التي ترضى منه الفكر والعقل والتطلع المادي ، والجوانب التي ترضى احساسه الفني ومواهبه التعبيرية عن طريق الكلمة والنغم والخطوط والالوان والصوت والنحت .

واذن فحينما تقوم دعوة هنا وهناك للانتقاص من قدر الادب والفنون التعبيرية الاخرى باعتبارها وسائل عتيقة ترضى الخيال اكثر مما ترضى الواقع ، والعصر اليوم عصر التقنيات وعصر الاقتصاد وعصر العلم الذي اصبح يتطاول فيتجاوز الافلاك باحثا عن مستقر للانسان في القمر او الزهرة او المريخ ، حينما تقوم دعوة من هذا النوع للانتقاص من قدر الادب انما تجافي الطبيعة الانسانية وتتنكر للقيم الانسانية وتبرهن عن جهل بقدرة الادب وفنون التعبير الاخرى على خلق الانسان الذي يتجاوز الافلاك خلقا جديدا .

من اجل هذا كتبت فصول « ازدواجية الانسان » و « انفتاح المثقف » و « الادب والثقافة » وغيرها من الفصول التي حسبها الناقد الفاضل بعيدة عن موضوع النقد الادبي بعد ان غفل عن موضوع الكتاب الاساسي رغم ان عنوانه مكتوب بالخط العريض ...

وقد اوضحت فكرة الكتاب ايضا في المقدمة حينما قلت : « من القيم ما لا يحتاج الى دفاع لانها لم تكتسب صفة « القيمة » الا بعد ان دافعت عن نفسها في وجه تيارات من التحديات على مختلف العصور .

وفي مقدمة هذه القيم الادب .

ولذلك فالدفاع عن هذه القيم لا يعني مواجهة الذين يتكونها كقيمة فكرية ما تزال تتنفس بحياة ، مواجهتهم بالمنطق والحجة لاثبات الذات ، ولكن يعني محاولة جديدة للتقييم ، قد لا تكون كلها جديدة ، وقد تكون مناسبة لابداء الراي حول كثير من المشاكل التي اختلف فيها الراي وقد تكون مناسبة للالمام باراء الاخرين ومناقشتها وتوضيح الراي فيها ، وقد تكون مناسبة لطرح التجربة الخاصة امام انظار القراء لتكون موضع مناقشة ومقارنة بتجارب الاخرين ، ولتكون محل قبول فتضيف جديدا ، او عرضة للرفض ، والرفض هو الاخر قد يأتي بجديد .

وهذا هو الذي قصدته من وراء كتابة هذا الدفاع .

ويتساءل السيد الجنابي في نقده للكتاب مثل هذه الاسئلة :

ما المقصود بالتصوير الجميل ؟

وهل الشاعر موكل بابداع الصور الجميلة ؟

ولا ندري ماذا يريد الكاتب الفاضل بالتصوير ؟ اريد التخييل ام مجرد التشكيل الصوري ؟

ويضيف الى ذلك قوله : « لقد تركنا الكاتب الفاضل في حيرة وفي ابهام لانه اعتمد على مجرد الخطواط النفسية والافكار الذاتية .. وهي امور غير مسعفة في مثل هذه القضايا النقدية التي تعتمد اساسا على المصادر الاساسية ومثل ذلك حديثه عن غموض الاسلوب .

والواقع اني على غير استعداد لان اشرح لناقد الكتاب كثيرا من الاشياء الواضحة التي تحدث عنها كثيرون . كالصورة الشعرية او التصوير الجميل ، ولا ان اجيب عن سوءاله : هل الشاعر موكل بابداع الصور الجميلة ؟ او ان اشرح الفرق بين الغموض واللاوضوح ، لست على استعداد لان اشرح ذلك كما اني لم اكن على استعداد لان اعود « **الى المصادر الاساسية** » في مثل هذه القضايا العادية . وافضل ان يبقى السيد الناقد في حيرة وابهام على ان الجأ الى شرح البديهيات او اعود فيها الى المصادر ...

من الاساليب النافهة في نقد كتاب او الملاحظة على مقال ابتسار جمل او اقتباس فقرات مقطوعة من سياقها للبرهنة على ان الكتاب عادي او المقال ناقص او الراي

سالد ومسلم . وهذا ما فعله السيد ناقد كتاب دفاع عن فن القول حينما زعم ان كاتب الكتاب يطرح في اكثر الفصول اراء مطروحة من قبل ولم يتجاوز الاراء السائدة والمسلمات النقدية الا في ثلاثة فصول . واستدل على ذلك بهذه العبارات « الشعر فن جميل » « ان الشعر يعتمد على الكلمة الجميلة والموسيقى الجميلة والتصوير الجميل » « ان الشاعر لكي يختار الفاظه في حاجة الى ثروة لغوية واسعة والى دقة في الحس اللغوي . »

هدفه من نقل هذه العبارات المتيسرة المقطوعة من سياقها هو الدلالة على ان فصول الكتاب تتضمن اراء سائدة ومسلمات معروفة . فهل لم يجد في فصل «صناعة الشعر» الى هذه الكلمة المسلمة التي لم ترد الا ليشرح المؤلف حظ الجمال في اطار الصنعة ؟ الم يقرأ هذه الفقرة:

« الشعر فن جميل ، وربما كان اكثر جمالا من النثر ولو انه يتمتع بنفس الحرية التي يتمتع بها النثر . وجماله يأتيه من الكلمة الجميلة الموسيقية المعبرة الموحية التي تلمس العاطفة والاذن والقلب ولا تصدمها جميعا . ويأتيه الجمال من انه يوحي ولا يكاد يصرح ، ويجمع الفكرة والصورة في فقرة او سطر او بيت ، ويبتعد قليلا عن جدل الفكر ونقاش المنطق ليستخدم اسلوبا اخر في الاقناع ، لا اقول انه اسلوب العاطفة ، ولكنه اسلوب الشعر وكفى . ويأتيه الجمال من انعدام الحدود امام الصورة التي يقدمها الشاعر ، قد تأخذ لمحة منها من سماء ، وهمسة من ارض ، واطلالة على ماض عريق في الماضوية وتطلع الى مستقبل عميق في المستقبلية . الوان من المشاعر والاحساسات والاوصاف والدلالات والمبادرات الخاصة للشاعر هي التي يستخدمها ليقدم الصورة والفكرة والنموذج » .

هذه الفقرة تعطي صورة عما يريده المؤلف من جمال فن الشعر ولعل الناقد الفاضل لم يهتم لها ، لانها غير منقولة عن مؤلف سابق ، ولم أعد فيها الى مصدر اساس من المصادر الاساسية ...

ثم ان الناقد نسي ان الكتاب كتب دفاعا عن الادب في وجه الذين يحاولون ان يغتالوه حينما لا يوفرون المناخ الجمالي عن طريق الكلمة الجميلة والتعبير الموسيقي الجميل ، والصورة الشاعرية . هل ناقد الكتاب اكتفى بقراءة جملة من هنا وجملة من هناك ليخلص الى ان الكتاب يطرح اراء ومسلمات نقدية ؟ لا اذهب في سوء الظن بالناقد الى هذا الحد .

ومثل ذلك يمكن ان يقال عن موضوع مستقبل الشاعر الذي قال الناقد عنه : انها فكرة مسلمة لان ماتيو ارنولد قال : ان مستقبل الشعر لعظيم . او لان ريشارد قالها في مقاله العلم والشعر ... ؟ الم يجد في فصلي « فن الشعر » و « الشعر وتطور الفكر والحضارة. ص ١١٤ ـ ١٢٦ اي جديد سواء في الفكرة او في طريقة مناقشة الراي ؟ انصح الناقد بان يعود اليهما .

وانتهى الناقد الى ان الجديد في كتاب « دفاع عن فن القول ثلاثة فصول هي :

الادب والالتزام ـ الالتزام الذاتي ـ التجربة القصصية » .

وكنت احب ان يخلص الى منهجه الذي دافع عنه في مفتتح نقده فيبرهن بالنصوص عن رأيه في اعتبار هذه الفصول جديدة ...

واحب ان انقل في اخر هذا التعليق فقرات من النقد الذي كتبه الدكتور عبدالهادي التازي عن الكتاب في الملحق الثقافي لجريدة « العلم » عدد ١٦٩ ـ ١٩ يناير ١٩٧٣ .

قال : « وقد تجلى لي من خلال القراءة الاولى للكتاب انه بحث اكاديمي ، ولو ان صاحبه تحاشى ، تواضعا ، ان يضفي عليه هذه الصفة ، ولو ان هوامش الكتاب لم يتحمل ارقاما او اشارات لمراجع على نحو ما نجد في البحوث الجامعية ... وان ما زاد في قيمة الكتاب ان صاحبه كان يتحدث على مستوى دولي فهو يضرب المثل بالعلماء والادباء خارج الاطار المغربي ، بل وعلى مختلف اللغات ... وان تنوع الفصول وتسلسلها كذلك وترابطها ليوحي بان الكاتب يضع تخطيطا لما ينشئه . وقد كان القارىء يشعر فعلا عند نهاية الفصل انه بحاجة الى الفصل الذي يليه . وقد اسعدني ـ وانا احس مرارة اختناق الكتاب العربي ـ اتمنى لكل نتاج مغربي رفيع ان يترجم الى لغة اخرى حتى يشق طريقه الى العالم الاخر الذي عرف كيف يغزونا من كل باب وكل منفذ .... »

وبعد فاذا كنت اشكر للسيد الجنابي ما بذله من جهد في قراءة الكتاب ونقده فاني لارجو ان يعتبر هذه الملاحظات مناقشة ، لم ارد بها الا تصحيح راي او تقويم نظرية . ويبقى بعد ذلك احترامي لحرية الراي والتقييم فوق كل اعتبار .

الرباط